المورد

ملاحظات جديدة عن

الحـالـة الاجتماعية في العـــــراق

في القرنين الثالث والرابع بعد الهجرة

بقلـــم

عبداللطيف الراوي

اصدرت الدكتورة مليحة رحمةالله كتابها ـ الحالـــة الاجتماعية فيالعراق في القرنين الثالثوالرابع(١) بعد الهجرة ، والـكتاب هو اطروحتها التي نالت بها درجة الدكتوراه مـن جامعة القاهرة بدرجة الشرف الاولى ، وقد راينا ان نسجل ملاحظات كثيرة نصحح بها معلومات ، او نوضح حقيقة ، او نعيد حقا (مسلوبا) ، ولقد سبقني الاخ الاستاذ بدري محمد فهد بتسجيل مثل هذه الملاحظات واخرج لها كراسا طبعه قبل فترة قصيرة ومع هذا ظلت هناك ملاحظات اخرى كثيرة فاتت على الاخ بدري او انه ما اراد ان يتعب قراءه لكثرة ما سجل منملاحظات، استغرقت سبعا وعشرين صفحة .

الملاحظة الاولى التي يمكن ان نسجلها هي في منهج البحث، فالسيدة الفاضلة لم تحاول استقصاء ودراسة مكونات الحياة الاجتماعية ، اي لم تتعرض في بداية كلامها للبنيه التحتيـة للمجتمع (الحياة الاقتصادية) والتي هي اساس البنـــاء الاجتماعي لكل شعوب الارض ، ومن دراستها يمكن استخلاص مجمل القضايا الاجتماعية والسياسية والثقافية ، فقد دخلت الدكتورة في عناصر المجتمع راسا ودون مقدمات ثم انتقلت الى موضوعات اجتماعية واخذتها بمظهرها السطحي ولم تتعمق فيها، كما انها نسيت كثيرا من الموضوعات والجوانب الاجتماعيـة كعلاقة الناس فيما بينهم ، وعلاقتهم مع الحكام ، ومظاهـر المجون واللهو عند العامة والشذوذ الاخلاقي وانتشار الكدية والمكدين ، والتصوف والمتصوفين ... الخ من المسائل الكثيرة .

ومع كل هذا المنهج المضغوط السطحي ، المرتبك ، وقعت الاستاذة مليحة في مجمل تناقضات كما وضعت نفســها مواضع اتهام لا يمكن ان تتبرأ منها :

١ ـ تتكلم الاستاذة على استخدام المعتصم للاتـــراك فتقول : ـ « ... وهناك عامل حمل المعتصم على استخدام الاتراك ، وهو كون امه تركية مما اثر في طباعه وحمله على حب الاتراك وتقريبهم . وقد وصف الجاحظ الاتراك في رسالته مناقب الترك(٧) باتهم بدو العجم وانهم يتميزون بفدرتهم على تحمـل المتاعب ، كما اتصفوا بالشجاعة والقوة (٨) والطاعة في خدمـة قوادهم (٩) » .

وتحيل القاريء في هامش(٧) الى رسائل الجاحظ ، وفي(٨) الى ابن حسول في تفضيل الاتراك وفي (٩) الى المسالك والممالك.

والقارىء للاسف لا يرى في هذه الاحالات معنى وهو يفهم ان الكلام على الاتراك الذي جاء حشوا هو كلام الجاحظ ولا ندري لماذا تكثر الدكتورة من الاحالة الى مصادر واحد منهـــا يعوض عن البقية ، لم نسال الدكتورة هل حقا اثر عامل الخؤولة وحده في دفع المعتصم الى تقريب الاتراك او ان هناك عوامـــل عديدة تحيط بالخلافة وبناتها هي التي دفعت المعتصم الى ذلك ؟

٢ ـ تقول الدكتورة في معرض حديثها عن الفرس « ولا ننسى ان الفرس بالرغم من تمتعهم ببعض الامتيازات ... الا انهم لم ينسوا ان العرب ازالوا مجدهم السابق فاخذوا يدبرون المؤامرات ضدهم وظهر ذلك في القرنين الثاني والثالث بعـد الهجرة (٢٥) » وهامش (٢٥) يقول (كانت متمثلة في حركات الشعوبية والزندقة) وحبذا لو ذكرت الاستاذة الفاضلة ما هي حركات الشعوبية والزندقة وكيف تفسر وجود مثل هـذه الحركات ؟ وهل تؤمن فعلا بان العصر العباسي كان خاليا من بناته من الشوائب بحيث تكون الحركات المناهضة حتى وان كانت فارسية حركات شعوبية او زندقة ؟

٣ ـ في ص ١٥ـ١٦ ترى الاستاذة ان الفرس الروا في حياة الخلفاء من حيث البذخ والترف وبناء القصور ... الخ ويقينا ان حياة البذخ والترف كانت معروفة عند اهل مكة وعند البدو قبل ان يختلطوا بالفرس وهذه الحياة هي خلق الترف المادي وعنف الاستغلال الطبقي ، وقد يكون الفرس الروا في بعـض الامور الحضارية كالبناء وغيره اما في عمليات البذخ وغيرهـا فاثر الفرس لا اهمية له .

٤ ـ الهامش (٣٩) ص١٧ ، حول اعياد الشيعة ، والـر البويهيين فيها فقد احالتنا المؤلفة الى المنتظم ج/٦ ص٧ وحين رجعنا لم نجد اي خبر في هذا الجزء بمجمله انما وجـــدناه وباسلوب مختلف في الجزء السابع ص١٥ .

٥ ـ ص٢٥ ، وضعت الدكتورة في كتابها هذا النص (يقول ابو حيان التوحيدي : ٨٧ « واحصينا في بغداد جانب الكرخ ستين وثلثمائة جارية ») ، وتحيلنا الدكتورة في الهامش (٨٧) الى الامتاع والمؤانسه وحين رجعنا اليه وجدنا ابا حيان يقول : بانه احصى ومعه جماعة من اهل الكرخ ، المغنين والمغنيات الذين عرفوا في بغداد كلها فوجدوا « اربعمائة وستين جارية في

الجانبين ومائة وعشرين حرة وخمسة وتسعين من الصبيان البدور » !

٦ ـ ص٢٥ تقول الدكتورة « وكان للجارية التي تتصف بالجمال الف دينار » وتحيلنا الى ادم متز والذي يفهم من هذا الكلام انه كان يعطى للجارية على غنائها الف دينار بينما ادم متز يقول ان الالف دينار هي ثمن شرائها .

٧ ـ ص٣٠ : ظهر في العصر العباسي جماعة من المسلمين تفتخر بقرابتها من الرسول وبنسبها القرشي ...الخ هكذا تقول المؤلفة ، ولا اظن القاريء مهما كان بسيطا يوافقها على هذا الراي ، اذ ان هذه الجماعة لم تظهر في العصر العباسي طارئة ، فهي امتداد لما سبق ولم تكن تشكل ظاهرة اجتماعية متميزة .

٨ ـ ص٣٢ تقول المؤلفة « وكان الاشراف من بني هاشم باعتبارهم اقرباء الرسول ياخذون راتبا معينا من الحكومة الاسلامية وقد حرمت عليهم الصدقة » لم تشر المؤلفة من اين اخذت هذا الكلام وهو معلومات خبريه وليس انشاء وقد رجعت الى ادم متز فوجدت ان الكلام له ، وانه اعتمد على مصادر عديدة يراجع ادم متز ٢٦٢/١ .

٩ ـ ص٣٣ : تقول « وكانت تحدث في بعض الاحيان فتن بين الطالبيين والعباسيين فينحاز الى كل فريق اتباعه ١٣٨ » وترجعنا الى ابن الاثير وابن الجوزي ، وابن الجوزي اقدم من ابن الاثير والمفروض ان يقدم في التسطير وقد راجعت ابن الجوزي فرايت ان خبره يتحدث عن فتنة حدثت بين الديلم والاتراك لا بين العباسيين والطالبيين .

١٠ ـ ص٣٥ الهامش١٤٩ ارجعتنا به الى ادم متز ٦٠/١ ولا وجود لمثل هذا النص الذي ذكرته المؤلفة في ادم متز .

١١ ـ ص٣٨ : ذكرت المؤلفة هذا الكلام « ولم يكن النصراني يرث اليهودي ، ولا اليهودي يرث النصراني ، كما لم يكن النصراني او اليهودي يرث المسلم ، ولا المسلم يرث غير المسلم ، يهوديا كان ام نصرانيا » (١٦٤) ، واحالتنا في الهامش ١٦٤ الى كتاب استاذها محمد جمال سرور (الحضارة الاسلامية في الشرق) وقد وجدت « ومن حسن حظ المؤلفة » ان هذا الكلام هو كلام ادم متز بحذافيره وقد جاء في الجزء الاول ص٥٩ .

١٢ ـ ص٣٨ : بعد النص ١٦٤ تقول المؤلفة « وان ترد تركة من مات من اهل الذمة ولم يخلف وارثا على اهل ملته » ولقد اوردت المؤلفة هذا الكلام بما يوحي انه لها والحقيقة انه نص من كتاب اصدره الخليفة المقتدر في المواريث عام ٣١١هـ (ينظر متز ٥٩/١) .

١٣ ـ ص٤١ : تقول المؤلفة (وقد كتب للصابئين في منتصف القرن الرابع كتاب عن امير المؤمنين (المطيع لله) اقر فيه الى جانب صيانتهم وحراستهم والذب عن حريمهم ... الخ) وقد ظهر للقاريء ان هذا من انشاء المؤلفة والحقيقة ان هذا الكلام ما عدا (المطيع لله) هو من كلام ادم متز ٦٠/١ .

١٤ ـ ص٤٢ : تقول المؤلفة (ويقول هلال الصابي ١٨٦ «ان صابئه حران تعبد الكواكب الخ النص الذي فتحت له قوسا ولم تقفله ولم تنهه ، وارجعتنا الى رسوم دار الخلافة مرتين ص٦ ، ص٧ .

ولعلم المؤلفة الفاضلة ان ص٦ ، ص٧ تقع ضمن المقدمة الطويلة التي كتبها محقق رسوم دار الخلافة الاستاذ ميخائيل عواد ، وان هذا الكلام الذي نسبته الى الصابي هو كلام المحقق على نسب الصابي .

١٥ ـ ص٤٧ : في حديث المؤلفة عن العلماء تقول (ومنهم من لعب دورا كبيرا في توجيه العامة كابي حيان التوحيدي ٢١٤) وترجعنا الى احمد امين في ظهر الاسلام ، ونحن لا ندري مثل المؤلفة تماما الى اي شيء يوجه العلماء العامة وماذا كان دور ابي حيان في عملية التوجيه هذه .

١٦ ـ ص٥٤ : في حديث المؤلفة عن العيارين ، ترجعنا في الهامش ٢٦٨ في جملة مصادرها الى تلبيس ابليس ص٣٧٨ ولا وجود لنص في هذه الصفحة يسند قول المؤلفة .

١٧ ـ ص٥٤ـ٥٥ : وفي الحديث ايضا عن هذه الفئة تقول (وتميزت حركاتها بالطابع الثوري ٢٦٩) وترجعنا الى المسعودي ج٣١٥/٦ ، والمسعودي بريء من هذا النص وهذه اللفظة (لاحظ الثوري) .

١٨ ـ ص٥٦ : الهامش ٢٨٣ ترجعنا فيه الى الاوراق ، والاوراق اجزاء كثيرة منها ما هو مطبوع ومنها ما هو مخطوط ومنها ما هو مفقود فالى اي كتاب من الاوراق نرجع ياترى ؟! .

١٩ ـ ص٥٩ : تقول (فحدد معزالدولة راتبا قدره خمسة الاف دينار شهريا للمستكفي ، وكذلك الحال مع المطيع والطائع وغير هؤلاء ...) ، ويفهم من هذا الكلام ان معز الدولة حدد للمطيع والطائع وغيرهما راتبا بقدر راتب المستكفي ، والحقيقة ان راتب المستكفي الغي ، واقطع المطيع ومن بعده الطائع (ولم يعاصر غيرهما) قطعة ارض للعيش على وارداتها .

٢٠ ـ ص٦٥ : كان الاجدر ان تضع حكاية الصولي عن بلخ الراضي وقد نقلتها نصا بين قوسين .

٢١ ـ ص٦٨ : في حديثها عن الالبسة النسائية ارجعتنا الى الف ليلة وليلة ، والى مصادر اخرى ، وهذا المصدر لا علاقة له بالحياة الاجتماعية في العراق ابدا ، فالف ليلة متاخر عن العصر الذي تتكلم عليه المؤلفة ولم ترجع الى حكاية ابي القاسم البغدادي ففيها ما يغني عن الرجوع الى مصادر كثيرة .

٢٢ ـ ص٧٤ : تقول المؤلفة (وكان للوزير ابن مقلة قصر كبير انفق على بنائه مائة الف دينار الحق به بستانا كبيرا (١١١) والهامش (١١١) يرجعنا الى المنتظم ٢٢١/٦ ، وحين فتشنا هذه الصفحة لم نجد مثل هذا النص ولا ما يشبهه وقد وجدنا في صفحة ٢١٠ في الجزء نفسه قول ابن الجوزي (وكان له بستان عدة اجربة ... الخ) ولم يقل انه ملحق بالدار .

٢٣ ـ ص٧٧ : تذكر المؤلفة ان المقتدر صادر في جملة من صادر علي بن عيسى وترجعنا الى المنتظم والى البداية والنهاية ولم يذكر صاحب المنتظم في الصفحة التي اشارت اليها ٢٨٩/٦ اي شيء عن المقتدر ومصادرته لعلي بن عيسى انما (ذكر ان الخليفة الراضي قد عرض على علي بن عيسى الوزارة فابى واحاله الى اخيه عبدالرحمن بن عيسى الذي عجز فقبض عليه ... ويبدو ان المؤلفة لم تفرق بين المقتدر وابنه الراضي وبين علي واخيه عبدالرحمن .

٢٤ ـ ص٨٩ : لا حاجة للتمثيل بالغناء في عصر الرشيد وجعله نموذجا .

٢٥ – ص٩٢ : في الحديث عن مجالس الغناء تقدم وتؤخر فتذكر مجالس ابن الفرات ثم تعود وتذكر مجالس الوزير قاسم ابن عبيدالله وزير المعتضد وابن الفرات متاخر عن قاسم ابن عبيدالله وزير المعتضد ...

٢٦ – ص٩٤ : لا داعي للتركيز على المغني الموصلي وعهد الرشيد لان هذا العصر بعيد عن دراستها .

٢٧ – ص٩٤ : تقول المؤلفة (اما مجالس الطرب والغناء عند العامة فعلى الرغم من انه لم يرد في كتب التاريخ والادب معلومات وفيرة عن مثل هذه المجالس فانه مما لا شك فيه ان بعض العامة من المسلمين كانوا يحضرون حفلات تتناسب مع مستوى معيشتهم «٧٢») ، والهامش ٧٢ يرجعنا الى نشوار المحاضرة ولا ندري ماذا يقول صاحب نشوار المحاضرة عن هذا الذي يلصق به .

اننا ننبه المؤلفة الى ان العامة كانت لهم المجالس العديدة ولو راجعت سجل المغنيات عند ابي حيان في الامتاع لعرفت ولم العامة بالغناء وكذلك الامر في حكاية ابي القاسم وهنا لابد ان نسامل لم خصت بعض العامة من المسلمين ، والكتاب عام عن المسلمين وغيرهم من الملل والطوائف ..

٢٨ – ص ٩٧ : تقول في حديثها عن القصاص (واصبحت مجالسهم عامرة في المساجد ٩٢ او الطرقات ٩٣ او الاسواق ٩٤ بل وفي المقابر ايضا ٩٥) ، وللتاريخ نقول ان المصادر التي اشارت اليها في ٩٢ ، ٩٣ ، ٩٤ ، ٩٥ ، لم تقل ولم تقرر مثل هذه الاشياء بالصورة الحاسمة التي قررتها المؤلفة الفاضلة فتاخذ مثلا الهامش ٩٢ والذي ارجعتنا فيه المؤلفة الى ابن الجوزي في المنتظم ١٠/٨ وحين رجعنا الى ابن الجوزي وجدناه يقول في حديثه عن علي بن هلال المعروف بابن البواب انه كان (يقص بجامع المدينة) ولم يشر الى ان مجلسه كان عامرا من بعيد او قريب .

٢٩ – ص٩٩، ١٠٠ : شوهت كلام متز عن الوعاظ (ينظر متز ١١١/٢)

٣٠ – ص١٠٠ : تقول المؤلفة (وكذلك ابن سمعون الواعظ الذي كان مترفا في حياته ١١٤) والهامش ١١٤ يرجعنا الى المنتظم ١٩٨/٧ والمنتظم لم يذكر حين ترجم لابن سمعون انه كان مترفا .

٣١ – ص١٠١ تقول المؤلفة (واتخذ الوعاظ في مجالسهم في اماكن متعددة غير المساجد منها المقابر ١١٦ وبعض المحال العامة) (١١٧) ويرجعنا الهامش ١١٦ الى ابن الجوزي في المنتظم ٨٩/٩ ، وحين راجعنا المنتظم في الجزء والصفحة المشار اليهما، وجدنا ابن الجوزي يقول في ترجمته لرزق الله بن عبدالوهاب (وكان يعظ في السنة اربع دفعات في رجب وشعبان وعرفه وعاشوراء الى مقبرة الامام احمد ويعقد هناك مجلسا للوعظ) .

واذا علمنا ان هذا الواعظ قد توفي عام ٤٨٨هـ ادركنا البون الشاسع بين عصر المؤلفة وزمن الواعظ ، نضيف الى هذا ان مبادرة هذا الواعظ كانت فردية لا تعمم بهذا الشكل ..

اما الهامش ١١٧ فيرجعنا الى المنتظم ٣٠/١٠ والمنتظم هنا يتكلم على شيوخ ووعاظ عاشوا سنة ٥٢٧هـ فانظروا الدقة في البحث .

٣٢ – ص١٠٢ : تتكلم على المراسيم التي عرفت بالاعتقاد والقادري وتنسبها الى ابن الجوزي في المنتظم وابن الجوزي في الموضع الذي اشارت اليه المؤلفة يتكلم على حوادث سنة ٤٢٠ واظن ان هذه السنة بعيدة عن عصر المؤلفة نوعا ما . وكذلك تتحدث عن الاعتقاد القادري وتقول انه اذيع سنة ٤٢٢هـ وتنسب ذلك الى ابن الجوزي في المنتظم ، وابن الجوزي في المكان الذي اشارت اليه المؤلفة يتحدث عن اخبار سنة ٤٦٠ للهجرة واظن ايضا ان المؤلفة قد ابتعدت كثيرا عن عصرها .

٣٣ – ص١١١ : تقول المؤلفة (اما عادات الحزن على الموتى فقد سادت مدن العراق في القرنين الثالث والرابع بعد الهجرة، وشملت جميع طبقات المجتمع حتى نساء الخلفاء ، فيروى ان ام المقتدر حزنت حزنا شديدا على وفاة ابنها الخليفة المقتدر) بالله ، ما هذا الاكتشاف الخطير حول الحزن !! اما كان الاجدر بالمؤلفة الفاضلة ان تحدثنا عما يفعلون في المآتم من لدلم مثلا او قراءة قرآن او اقامة الفواتح او غير ذلك ، بعد هذا نتساءل ما معنى هذه العبارة (وشملت جميع طبقات المجتمع حتى نساء الخلفاء) أيمكن ان يكون الحزن غريزة انسانية بعيدة عن مجتمع نساء الخلفاء فجاءت وشملتهن في هذين القرنين ؟ يجوز !! .

٣٤ – ص١١١ : ايضا تقول المؤلفة (اما عن ثياب العزاء فان المؤرخين لم يمدونا بمعلومات وافية عن لونها ووصفها على اننا نستطيع ان نقول ! انه كان يغلب عليها اللون الاسود وذلك على ضوء ما ذكره بعض المؤرخين عن وفاة الخليفة المستنصر سنة ٦٤٠ وارتداء رجال الدولة الثياب السوداء في يوم وفاة هذا الخليفة «٣١»)

والهامش «٣١» يرجعنا الى ابن الجوزي في المنتظم ٢٩٥/٨ ولعلم القراء نقول : ان ابن الجوزي توفي سنة (٥٩٧هـ) اي قبل وفاة الخليفة الذي ذكرته بثلاث واربعين سنة فكيف تسنى لابن الجوزي الميت أن يؤرخ للمستنصر ، ربما هذه عجيبة جديدة !! ، ومع هذا رجعنا الى المنتظم ٢٩٥/٨ فوجدنا ان ابن الجوزي يتحدث عن وفاة الخليفة القائم بامر الله سنة ٤٦٧ هـ ، ولم يذكر ايضا ان رجال الدولة قد لبسوا ثيابا يغلب عليها اللون الاسود ، اظن ان الامر لا يحتاج الى محاججة ..

٣٥ – ص١١١ : الاقوال التي ذكرتها المؤلفة حول العادات الفارسية ، والتي اعطتها رقم ٢٣٦ ورقم ٣٧ ونسبتها الى البيروني والثعالبي ، وكانت وللحقيقة عملية نقل مشوه عن آدم متز ٢٩٠/٢ ولم تعتمد المؤلفة كما رايت على البيروني ولا على الثعالبي ابدا ، اشارت الى المصادر نفسها التي اشار اليها متز ، وحبذا لو تركتها كما وضعها متز ولكنها للاسف غيرت فشوهت ، فقد ذكر متز انه راجع البيروني في الآثار الباقية ص ٢٢٣ وجاءت المؤلفة وقالت انها راجعتها ص ٢٢٢ وذكر متز التهادي واشار الى اليتيمة ٦٥/٤ فجاءت المؤلفة وابدلت ٦٥/٤ ب ٢٨١/٢ وشتان بين الرقمين ، حتى وان اختلفت الطبعات .

٣٦ – ص١١٥ : تقول المؤلفة (كانت مظاهر الاسلام تتجلى في الاحتفال بعيدي الفطر والاضحى في جميع البلاد الاسلامية وبخاصة طرسوس حيث يتوافد اليها غزاة المسلمين من انحاء الدولة الاسلامية ٥٧) .

وترجمنا في هامشها «٥٧» الى استاذها محمد جمال سرور، واذا كان الامر كذلك ، ولا اظنه كذلك فقد توهمت هي واستاذها،

فلم يكن هناك بلدة اسمها طرسوس ، انما هي طرطوس وهي في سوريا على الساحل وهذا الكلام على ما رايته منقول نقلا مشوها من آدم متز ٢٩٢/٢ .

ثم لم تبين لنا المؤلفة ما علاقة العراق بطرطوس وحتى ان كانت هناك علاقة فلماذا كانت طرطوس مركزا لابهة هذين العيدين لماذا لم تفسر ذلك ؟

٣٧ ـ ص١١٦ : الهامش ٦٥ اعتمدت فيه على المنتظم ٢٥/١٠ والجزء العاشر يتكلم فيه ابن الجوزي على حوادث القرن السادس ، فلماذا تستند المؤلفة على اخبار القرن السادس في استخلاص قضايا اجتماعية المفروض انها تسجلها للقرنين الثالث والرابع للهجرة .

٣٨ ـ ص١٢٣،١٣١ : الهوامش ١٠٣،١٠٤،١٠٥،١ ، والتي تنسب اقوالها الى تلبيس ابليس لم اجدها في هذا الكتاب بالرغم من مراجعتي الطبعة التي اعتمدتها المؤلفة ، ومحاولتي ايجاد تعليل لما وقعت فيه بان اقلب ارقام الهوامش او ابدلها لعل الطباع سها او اغفل لكن هيهات .. وهناك هوامش غير هذه كثيرة نسبتها المؤلفة الى كتب لم اجدها ، وعزوت ذلك الى خطأ مطبعي او سهو ، او غير ذلك .

هذه ملاحظات قصيرة اردت ان اسجلها على المؤلفة الفاضلة راجيا من عملي خدمة الحقيقة التاريخية آملا ان تكون البحوث الادبية والتاريخية الاكاديمية بمستوى المسؤولية .

• • •